

تمهيد شخصي

لست مؤرخًا ، ولكني أعشق التاريخ ، قراءته عندي معايشة له . تاريخ بلادى توكيد لشخصيتي ، والتاريخ الإسلامى توكيد للإيماني ، والتاريخ العام توكيد لرفقة الإنسان ، تجديني في كل هذه التواريخ حقبات البقطة ، التي تدفع الإنسان في مراقى الحضارة دفعا ، بالفكر والإحساس ، وإعمال كافة الحواس . قد يبلغها بالثورات ، وقد يحققها بالسلام . قد ينتشر فكره الجديد انتشار الضياء ، وقد ينتقل بالغزو ، وهو شر يطوى الخير ، فينتقل هذه غصبا عنه .

يقظة الشعوب هي التي تعينى ، أيا كان مصدرها . يعينى ما نقلته الحروب الصليبية من الحضارة الإسلامية إلى الغرب . وما أفاده الشرق الأوسط منها . ما كسبه العرب من الروم (بيزنطة) ، ومن الفرس ، ومن الهند . وما نقلته الفتوح الإسلامية إلى صقلية . وشبه جزيرة إيبيريا إلى أوروبا . وفضل الثورة الفرنسية على الدنيا . فكانت مصدر الخير الذى خرج من شر الغزو الفرنسى بقيادة نابليون

بونابرت . فالحرية التي نشرتها تلك الثورة في العالم هي أيضًا ، بنت
عصر الإرهاب اليعقوبي .

وفي التاريخ حضارات أصيلة تمثل يقظة الإنسان بحكم
إنسانيته ، وقدراته العقلية والشعورية . حضارات « الشرق
الأدنى » : في وادي النيل ، وبلاد الرافدين ، وحضارة اليونان .
وحضارات آسيا : فارس ، والهند ، والصين . ثم الحضارات التي
نزلت بها الكتب السماوية الثلاثة .

وبنفسى أتحدث عن حضارة «الرينسانس» ، أو ما ننته
بكلمتين : عصر النهضة ، أو عصر الإحياء . وهي حضارة نشأت في
الدويلات الإيطالية ، فكانت نتاجًا عجيبيًا من مسيحية العصر
الوسيط ، ومن العودة إلى حضارة الإغريق ، وإحياء حضارة
الرومان ، وما استألفت من الحضارة الإسلامية . لا أكتفي بمجرد ناقل
من أعلام الكتب التي أرخت لها ، وإنما كقارئ رأى ووعى ما جاء
بتلك الكتب ، بعد جولاتي في بلاد نشأتها ، وقد شاهدت آثارها
وقرأت بعض آدابها ، وتمتعت بكل مظاهر فنونها .

ولقد فاضلت بين ما قرأت من مؤلفات عنها ، وأشهد بأن كتاب
السويسرى من مدينة «بازل» أو «بال» يعقوب بوركارت :
«حضارة الرينسانس في إيطاليا» هو أشهرها ، ومن أقدرها على
النفاذ إلى أصولها ، فانتخذه قائدًا لتحرير بعض هذه الفصول التي
تؤلف كتابًا عربيًا صحيحًا ، أرجو له إذا ما تم أن يقوم بدور الدليل

العقلاني إلى تلك الحضارة ، يضيء لنا جميعاً سواء السبيل فيما اعتبره أساساً لا غنى عنه لمن يتلمس طريقاً يُبلِّغه معنى الحضارة إطلاقاً ، فهي فكر وفن وعلم ، وتفتح لاكتشاف العمورة دنيا ، والإنسان روحاً وجسداً ، والجماعات إدارة وسياسة ، واقتصاداً وتجارة .

قسّم بوركارت كتابه ستة أقسام ، هذه رموس موضوعاتها :

- الدولة كعمل فني

- نمو الفرد

- إحياء الحضارات القديمة

- اكتشاف الدنيا واكتشاف الإنسان

- المجتمع واحتفالاته وأعياده

- الدين والأخلاق .

وإذ أبدأ بنمو الفرد فلأن عنوان حضارة الرينانس هو إنسان متفتح العقل والشخصية ، بطرق مجالات المعرفة بمقدرات البشر ، وإنجازاته في الفكر والفن والعلم والأدب . وتلقانا هنا ظاهرة مشابهة في أوج الحضارة العربية ، إذ يتجه فكرنا تَوّاً إلى أبناء سينا ورشد والهيم وخلدون ، وإلى أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني . وهي شخصيات موسوعية ، إنْ تخصصت في باب من أبواب المعرفة ، فإن اتساع ذهنها ، وامتداد بصرها ، يصلها بشتى فنون المعرفة ، وعلومها وآدابها .

وأستاذنا هنا في سرد ظرف شخصي وهو الدافع إلى اعتزامي

وضع هذه الفصول . فهي مهداة مقدماً إلى روح الطبيب المصرى العلامة ، والمفكر العربى الأصيل المرحوم : الدكتور محمد كامل حسين فهو الصورة التى تكشفت لى فى منتصف عمره وعمرى ، ممثلة للشخصية الجذرية فى حضارة العرب ، وفى حضارة الرينسانس .

وقد احتفل «الاتحاد العلمى المصرى» فى الشهر الأخير من سنة ١٩٧٧ ، عام وفاة كامل حسين (فى شهر مارس) بإحياء ذكراه . وكان علىّ فى هذا الاحتفال أن أتحدث عن محمد كامل حسين ، الإنسان الذى يمثل «الهومانزم» فى عصرنا ، أصدق تمثيل .

اتجهت فى إعلام خطابى إلى «عصر الإحياء» بحثاً عن نموذج فردى يضاهاى كامل حسين . وعندما وقع اختيارى على هذا النموذج ، عثرت على وصف شاعر كبير صديق معاصر له ، هو «بوليتسيانو» ، شاعر بلاط «لورنتسو» الأفخم ، أمير فلورنسا فى أزهى حقبات عصر «الرينسانس» . فترجمت هذا الوصف بتصرف مقصور على إخفاء بعض المعالم التى تكشف عن الشخص الموصوف فى الأصل الإيطالى . فيحسب المستمع المصرى العارف بكامل حسين أنه وصف له :

«كان ألمع الشخصيات فى المجتمع . شخصيته الجذابة شبت ونمت على المعرفة . وبدافع عقله اليقظ تابع الدراسة من باب إلى آخر ، وحقق امتيازاً ملحوظاً فى الشعر والأدب . والفلسفة ، والعلم . وصفه شاعر من معارفه بأنه نموذج مثالى . وعبته الطبيعة كل

عطاها . . . رجل مكب على الدرس بلا معاناة ، صاحب ذاكرة عجيبة ، وثقافة بارحة الجنبات ، متمكن من لغته ، فهو علم فيها ، متضلع في لغات أخرى . دماثة الخلق في طبعه ، متفتح العقل لكل فلسفة ، وكل دين . لا يرفض نظامًا عقلائيًا ، مع أنه المتصوف بقلبه وكيانه ، دون تقبل الغيبات الشعبية . يعطف على الفلسفة الاسكولائية ، وهذا غير معهود في أنداده ، متبحر في الفكر العرني ، ومنتظر على الفكر العبراني . لا أثر لتعصب في تفكيره ، ولا في علاقاته . طالع الأناجيل وأسفار «العهد القديم» ، وتدارس الديانات المقارنة ، وجمع في وحدة معارفه الموسوعية ، والمسيحية ، وضم إليها الأفلاطونية .

« وعلى الرغم من الاحترام والتبجيل الذي يقابل به في كل موضع ، فقد احتفظ بتواضعه ، إلا فيما يمس دقة تفكيره ، وصحة علمه ، أو يخط عن قرب أو بعد . بقيمة العقل والحكمة . »

والموصوف بهذا في الأصل هو : الكونت چوقاني بيكوديلاً ميراندولا . كان عضوًا بأكاديمية أفلاطون بفلورنسا ، وهي تجمع الدارسين للحوار الأفلاطوني : مارسيليو فلشينو ، مترجم أعمال الفيلسوف اليوناني الأعظم ، إلى اللغة اللاتينية . والشاعر بوليتسيانو ، وسيد الفنانين ميكلائجلو بوناروتي ، ومنشئ الأكاديمية ، الشاعر الرعوى ، أمير فلورنسا ، لورنتسودي ميديتشي الأفخم .

كان بيكوديلاً ميراندولا الشخصية الساحرة في الأكاديمية .

درس في جامعتي بولونيا وباريس ، واستقبل بحفاوة في بلاطات
أوربا ، ثم استقر في فلورنسا بطلب الأمير المديثي . عالج الشعر
والفلسفة والعمارة والموسيقى . وصفه الشاعر بوليتيانو : طويل
القامة ، وسيم الطلعة ، وضارها ، قوى الذاكرة ، موسوعي
الثقافة ، عارف بلغات كثيرة ، حفي بالنساء والفلاسفة ، كريم
الخلق ، بارز في كل ما يتسم بالعقل ، عقله متفتح لكل فلسفة
وديانة . . وإليك صفحة من كلام الكونت «بيكوجوفاني ديلا
ميراندولا» تدلّ على منزلته :

سوى الرب الإنسان في ختام مخلوقاته ، خلقه ليتعرف على قوانين
الكون ، فيعشق جماله ، ويعجب بعظمته . لم يربطه بمكان ثابت ،
ولا في عمل بعينه ، أو بضرورات جامدة . ولكنه ، سبحانه ، وهبه
الحرية في إرادته وباطنه .

«قال الرب لآدم ، لقد وضعتك في وسط الدنيا ، لكي
تشرف ، وترى كل ما فيها . لم أخلقك سماوياً ، ولا أرضياً . لا فانياً
ولا خالداً . لك الحرية لتسوى وتحكم بنفسك . فقد تنحط إلى
درجة الهائم ، وقد ترقى إلى الشبه الرباني . فالحيوانات تحمل من
أجساد أمهاتها ما يلبث بها طول حياتها . أما الملائكة فهم منذ
الخليقة ، أوفى أعقابها على التو ، باقون كما هم إلى أبد الأبدين . لك
وحدك النماء ، والتطور حسبما تشاء إرادتك الحرة . لأنك تحمل في
كيانك كل بذور (جراثيم) الحياة الدنيا . . .» .

صفة عامة لعصر الإحياء : اتساع الثقافة ، مما يمهد الطريق إلى التقدم ، ويسمو بالحاسة الفنية للإنسان . . .

عهد الإحياء في أوروبا ظاهرة حضارية تشبه ما حدث في عهد ازدهار الحضارة العربية ، سواء في عصر المأمون ، أو بعده في حضارة الأندلس . لم يقتصر «الرينسانس» على ما يفهم من اسمه ، ومعناه «الميلاد من جديد» . توصيفاً للعودة إلى حضارة الإغريق والرومان . وإنما كان انفتاح الإنسان على نفسه لتحليل ظاهرها وباطنها . وتشوقه إلى استطلاع الكون واكتشافه . وهذه الظاهرة لم يختص بها «الرينسانس» ، ولا عصر المأمون ، أو عصر عبد الرحمن الأموي ، صقر قریش ، وإنما هي سمة كل حضارة مزدهرة ، يمكن أن توصف بيقظة الروح والعقل . . . يقول «ول ديورانت» في مجلده «عصر الإيمان» ، من كتابه : «قصة الحضارة» :

«ارتفاع شأن الحضارة الإسلامية ، وتدهورها ، من المعالم الكبرى في التاريخ . فليمدى خمسة قرون من سنة ٧٠٠م حتى سنة ١٢٠٠م ، قاد الإسلام العالم سؤددًا ونظامًا ، واتساع ملك ، وأسلوبًا في الحياة رقيقًا مهذبًا . كما قاده في نماذج المعيشة ومستوياتها ، وفي التشريعات الإنسانية ، والتسامح الديني ، وفي مجالات الأدب وبحوثه ، وميادين العلوم ، والطب ، والفلسفة . . .» .

وحينما تلمست الشبه بين العالم والطبيب ، والأديب محمد كامل

حسين ، وبين رجل الريسانس النموذجي ، إنما عنيت تصوير الشخصية الحضارية التي تؤثر في عصر من العصور ، وتبقى معلماً من معلمه ، وتشير إلى نهضة أو إحياء . . .

محمد كامل حسين في القرن العشرين ، مثل بيكوديلاً ميراندولا في القرن الخامس عشر . يمثل عصر نهضة وإحياء بدأ في منتصف القرن الماضي ، حين كان علمه وشارته ودليله هو رجل الأزهر رفاعة رافع الطهطاوى . وما فتئ هذا العصر يغذ السير إلى الذروة على الرغم مما ابتلى به من حكام ضعاف أو أقوياء . ولكنهم في الجريمة سواء : جريمة إهمال شعب خلاق ، صناعته الحضارة ، وتاريخه في الحضارات لا مع رائع .

المقدمات

١ - عصر الإحياء منارة الحضارة الحديثة

تعمقت دراسة عصر الإحياء ، وهو الموصوف في اللغات الأوربية باسم «الميلاد من جديد» (الرينسانس) ، وخاصة بعد زيارتي الممتدة لباريس ، اتسعت فيها مراجعي . ولقد سألتني بعض زملائي القدامى هناك عن سر اهتمامي بذلك العصر الأصيل في حضارتهم .

وإجابتي لا لبس فيها ، تلخص في إحساسي بأن «عصر الإحياء» بمصر بدأ في القرن الماضي على يد أعضاء البعثات العلمية إلى باريس ، بعد عودتهم ، وعلى الأخص إمامهم الشيخ العالم رفاعه رافع الطهطاوى . وأحب أن أضيف هنا اسم رجل الدين العظيم الشيخ محمد عبده .

لم أقصر في دراستي على الرينسانس ، بل حرصت على مراجعة العصر الوسيط ، وتاريخه يبدأ بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية الغربية بفعل برابرة الشمال الأوربي ، ويتوارى بمطالع «الرينسانس» في القرن الرابع عشر ، وبازدهاره في القرنين الخامس عشر والسادس

عشر. ولقد فزعت من طول تخلفنا منذ الغزو العثماني في القرن السادس عشر وكاتب هذا من المؤمنين بأن كانت لعصورنا الإسلامية مشاركة فعالة في الحضارة العربية - وهذه عندي هي أس البداية ، بل هي الأساس المبكين في العودة لإحياء نهضتنا . بشرط واحد ، وهو أن تتواءم هذه النهضة مع الحضارة الحديثة بكافة وسائلها الفنية والعلمية والاجتماعية .

وهناك رأى للمؤرخين المحدثين - وخاصة من مؤرخي العصور الوسطى - يعترضون فيه على وصفها بعصور الظلام ، وتحت نظري في هذه اللحظة كتاب تاريخ مدرسي للمرحلة الثانوية بفرنسا ، ولم أعر فيه على ما يقابل كلمة « دارك » (مظلم) استعمالاً لها في وصف « العصر الوسيط » عند الفرنسيين . والكتاب المدرسي يضع تقسيماً للتاريخ منذ نهاية العصور الكلاسيكية القديمة : « العصر الوسيط » هو عصر الإقطاع ويعني التقطيع السياسي والأرضي إلى أقصى حد . . . ويبدو أن شارلمان في عام ٨٠٠ وفق في توحيد إمبراطوريته ، ولكنها تقطعت بعد وفاته ، إلى نظام الحكم « الفيو دالي » (الإقطاعي) .

وفي نهاية القرن الخامس عشر تبدأ « العصور الحديثة » بالاختراعات الكبيرة كالمطبعة ، واكتشاف قارات جديدة عبر الأقبانوس الاطلنطي وبحر «الرينسانس» النفوس من الإخبار والخضوع والتشويش والجهالة .

وفي ختام القرن الثامن عشر تحدد الثورة الفرنسية مطالع «العصر الحاضر»: الحريات السياسية والمساواة أمام القانون، وحكم الشعب.

٢ - مشاهير سطحية

أحدث ما بين يدي من كتب متخصصة صدر ضمن سلسلة يديرها الأستاذ زيمون بلوك تحت اسم «مجموعة تواريخ الحضارات»، وهو كتاب فخم صدر في سنة ١٩٦٧ (طبعته الأحدث بتاريخ ١٩٧٣) على بكثير من الصور والخرائط والبيانات، ألفه مؤرخ نابيه، هو الأستاذ جان ديوموه بعنوان «حضارة الريسانس». يقول الأستاذ زيمون بلوك في تقديمه لمؤلف تلميذه:

«... وربما كان من خاتمة هذه الدراسة فكرة المعاصرة (موديرنزم) وهي تظهر بأجل بيان، إذ يقدم الكتاب في صورة رجاله وإنجازاتهم علائم تشبه بشكل عجيب سمات عصرنا الحاضر، ترقية الفرد، وتميز شخصيته. تصحيح وضع المرأة، وتقويم التربية بحيث تهدف إلى تكوين صادق للإنسان، لا إلى إثقاله بحمل لا يجدي روحه الهضيمة تحت وقر المعارف، عناية بالجسم وتربيته الرياضية، وبالتفكير الشخصي، مدعماً بالتجربة عن ماهية الإنسان، وطبيعته، وعقيدته، إثارة حماسه للإبداع الفني

والأدبي ، وللتحكم الآلى ، بالإضافة إلى دفع النخوة فيه نحو المجد الذى خلدت به انجازات اليونان والرومان ، كل ذلك مكتسب من القرن السادس عشر فى أوربا . ألا يبدو وكأنه فى الوقت ذاته بعض من اهتماماتنا الحديثة ؟» .

٣ - المال عند «اليانكى»

ويقول ويل ديورانت فى مجلده الكبير عن «الرينسانس» فى صفحة تجمع بين رجل الثقافة الكامل بالمعنى الأوربى «واليانكى» الصحيح بالمعنى الأمريكى :

«لم يكن كافيًا فى الرينسانس مجرد استحضار الحضارة الكلاسيكية . وإنما كان المال ، المال البورجوازى فىاح الرائحة من مكاسب مديرى العموم الشطار والعمال ذوى الأجر الضئيل ، ومغامرات السفر إلى الشرق ، أو عبر جبال الألب لشراء بضاعة رخيصة فى موضعها ، لتباع بأسعار مجزية فى بلد التاجر . ثم كانت الحسابات الدقيقة ، ورعوس الأموال ، والقروض ، والعوائد والفوائد المتكثلة ، بحيث تترك فائضًا - بعد الصرف على حاجات الجسد ، ورشوة أعضاء «السناتو» ، واللجان المتخصصة ، والعشيقات - وهذا الفائض هو الذى يؤدى الثمن لميكلائجلو وتبسيانو . وهذا تحول المال إلى جمال وكمال ، وتعطرت الثروة بعبير الفن .

المال أساس كل حضارة ، مال التجارة ، ورجال البنوك ،

والكنيسة ، هو الذى أوفى ثمن المخطوطات التى أعادت الحياة لعصر الكلاسيكيات . ليست المخطوطات هى التى تحرر العقل وتنقى الإحساس ، إنما هى «العلمانية» التى صاحبت ظهور الطبقة الوسطى ، كانت هى الجامعات واتساع المعارف ، والفلسفة ، وشحذ العقول بدراسة القانون ، وانفساح الفكر بإدراك أوسع وأصح للعالم .

لماذا كان أهل الشمال الإيطالى من دون أوروبا ، أول من أحسوا بنمات الربيع الحضارى ؟ لأن العالم الرومانى لم يخطف فى أرضهم تمامًا . فالمدن احتفظت بوضعها القديم ، مما استحضر ذاكرة الأهلين ، وهامهم أولئك يعودون إلى القانون الرومانى . وآثار الفن الكلاسيكى باقية فى فيرونا ومانتوا ، وبادوا ، وروما ، ومبنى «البانتيون» ما فتىء مكانًا للعبادة برغم مضى ١٤٠٠ عام على بنائه . ويكاد المرء يسمع فيه صوت سيسيزون ويوليوس قيصر ، فى جدال عام حول قضية «كانيلينا» . واللغة اللاتينية بقيت حية ، والإيطالية لهجة عامية منها ذات تنعيم . والشمال الإيطالى أكثر عمارًا بالمدن ، وبالصناعة ، ولم تسبق له معاناة الإقطاع بمعناه التوتونى . وإنما أخضع النبلاء تبعًا لحاجات المدن ، ومعهم التجار بطبيعة الحال . وهؤلاء ذوو أقدام تلقاهم فى كل مكان من أسواق فرنسا حتى موانئ البحر الأسود . درجوا على معايشة الروم والعرب ، والمصريين والفرس واليهود ، والهنود ، والصينيين . خفت لديهم حدة التعصب الدينى ، فتأثرت بهم الفئة المتعلمة ولم تنفر من أهل أديان غير ديانتهم .

يبدو أن الفكر العملي لأصحاب مهن المبادلة ، مضافة إلى التقاليد القومية ، وسجية في الشعب وكبريائه ، حافظت على تماسك الإيطاليين بديانتهم على المذهب الكاثوليكي . ولم يحلُ تدينهم دون إعجابهم وكلفهم بحضارة أسلافهم القدامى ، على الرغم من وثيتهم .

وساعد الإيطاليين على تحقيق الرخاء . المال الكثير الذي امتلأت به خزائن الفاتيكان بفضل إغداق المسيحيين في أصقاع كثيرة على كنيستهم الأم : فكانت هذه الثروة تسمح لفائضها أن يجرى على الشعب الإيطالي المتلف حول كرسي بطرس الرسول . وكانت حكومة الفاتيكان تغضى عن خطايا الجسد . وفي معاملة الفلاسفة ، حتى ذوى نزعة الهرطقة ، كانت تتجاوز ، مادام نشاطهم لا يمس ممارسة الشعب لدينه .

كل هذا يفسر سبق إيطاليا بنحو مائة عام ، على بقية غرب أوروبا في الفن والفكر . وعندما خبا وهج «الرينسانس» الإيطالي في القرن السادس عشر ، انتقلت حضارة «الإحياء» إلى فرنسا ، فألمانيا والأراضي الواطئة ، وإنجلترا ، وأسبانيا والبرتغال .

ومن الحق أن يوصف الرينسانس بأنه ليس حقبة من الزمن ولكنه «نظام في الفكر» .

٤ - التمسك بالعقيدة في مواجهة حضارة وثنية

أول ما يتصور القارئ ، حيال نمحرك إيطاليا الوسطى - فلورنسا بالذات - إلى حضارة اليونان والرومان ، هو التعارض بين حضارة وثنية ، وبين شعب مسيحي كاثوليكي . وينطبق ذلك كافة على الأمم الأوربية التي نقلت عن فلورنسا وساهمت في حضارة الرينسانس : فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا ، وبلاد الفلمنك ، وشبه جزيرة أيبيريا .

وقبل كل هؤلاء وقفت الحضارة الإسلامية موقفاً مشابهاً في مواجهة الإغريق ، ولكن المسلمين تجنبوا منها كل ما يتصل بالوثنية ، وأهمها الأدب الإغريقي شعراً غنائياً (ليريكياً) أو درامياً أو ملاحم وقصصاً نثرية . وواضح أنهم عرفوا بأمره بدليل الإشارة إلى الكوميديا (القوموديا) والتراجيديا ، ووصفت الأولى بشعر الهجاء ، والثانية بالمرأى . ولتأمل قليلاً في معنى هذا ، وقد أقبل مفكرو العرب في نهضتهم على الفلسفة الإغريقية ، مترجمة إلى السريانية ، ومنها إلى العربية . والإجابة الميسرة هي أن الخيال في المسرح الإغريقي ، وفي شعر الملاحم ، جعل من الآلهة شخصيات درامية أو ملحمية . وعند هوميروس تدخل الأرباب ، من ذكر وأنثى في مجرى حرب طروادة ، وفي تجوال أوديسيوس حول بحرنا القديم ، تدخلوا إلى درجة هبوطهم إلى شخصيات إنسانية بكل عيوبها وحسناتها ، إنما امتازوا عليها بالقدرة والقوة ، تأمل في الدراما

الإغريقية وكسر شوكة الإنسان عندما يقدم على مقاومة الأرباب ،
ولا تكاد تخرج مآسى التراجيديا عن هذا الصراع الجبار بين الإنسان ،
والمقدر له بحكم الأرباب .

والمؤكد لدينا أن المسلمين عرفوا ، ولو بالاسم ، هوميروس .
وأذكر جيداً في الكتب العربية أن مسلماً ذهب لزيارة صديق فوجد
عنده رجلاً يلقى شعراً لهوميروس ، وآسف أن قد ضاعت من ذاكرتي
تفاصيل هذه الواقعة . ويخيل إلى أن المسلمين من الأدباء والمفكرين
كانوا بمجرد سرد أية خرافة إغريقية يتضح لهم أن مثل هذا الأدب
الوثني ينزل بمرتبة آلمته إلى أحط درجات البشر في غيرتهم وغضبهم
وغمرياتهم ، والروضوخ لشهواتهم . فالمسلم في توحيده ، ونظمه
الأخلاقية ، إذ يواجه وثنية وضیعة ، يقيم ستاراً سميكاً بين الكتابي
والوثني . وكان إعجابي شديداً بالعلامة الإسلامي الكبير البيروني ،
وهو في ركاب السلطان محمود الغزنوي واقتحامه الهند ، جروء على
دراسة كبيرة لديانة الهندوس ، فإن تساؤلنا عن قبول الأوربيين ،
وإقبالهم على حضارة اليونان والرومان ، دون أن يشيحوا بوجوههم
عن الناحية الدينية في الأدب الكلاسيكي ، نلقى عنه إجابة واضحة
في كتاب بوركارت عن الرينسانس ، وقد ترجم إلى كل اللغات الحية
في أوربا - وهامى ذى : «لايضاح هذا التعارض الخطير بين
حضارة وثنية ، وبين شعب مسيحي ، نستفهم عن ثقافتهم
العقلانية . فهؤلاء الرجال المحدثون نشأوا مسيحيين متمسكين
ومحافظين على ديانتهم ، شأن أسلافهم في العصر الوسيط . غير أن

نضج الشخصية في فلورنسا جعل الإنسان أشد إحساساً بفرديته .
ولقد تأثر الفلورنسيون في مجموعهم بالسحر العجيب الذي استولى
عليهم في اكتشاف علمهم القديم ، إلى درجة أن تثقيفهم الفكري
جعل منهم رجالاً جددًا تقدموا على الأوربيين الآخرين ، ولم ينكصوا
عن ممارسة شعائر كنيستهم ، وهم يداولون كثيرين ما قد يحدث لهم
من الوقوع فريسة لشهواتهم وأنانيتهم ، وبين العودة إلى تقواهم
يطلبون المغفرة .

ومن ناحية أخرى كان اتصال الإيطاليين تبعاً لتجارهم ،
بالبينزنتيين (الأرثوذكس) وبالمسلمين ، دافعاً إلى سماحة وانفتاح
أفق لا يضيفه عليهم إحساسهم بأنهم كاثوليك . وعندما أصبحت
الحضارة الكلاسيكية مثلاً أعلى لهم بما اكتشفوا فيها من عظمة
الرجال ، ومن مؤسسات ونظم رائعة ، قوى إدراكهم لهذا ، أن
أصحاب تلك الحضارة القديمة هم بالذات من أسلافهم .

كان إيطاليو الوسط والشمال إذن هم أول الأوربيين المحدثين
يناقشون فكرة الحرية بشدة ، وهم محكومون بنظام سياسي قوامه
سيادة القوة على القانون ، وكان القدر يؤكد لهم سيطرة الشر . وقد
خفف ذلك من إيمان البعض ، فاتجهوا إلى الرضا بحكم القدر ،
مكتفين بإقامة شعائرهم ، مع تعلقهم بالخرافات أيًا كان مصدرها ،
إغريقيًا ، رومانيًا ، أو شرقيًا ، مثلهم في هذا مثل أسلافهم ، أهل
العصر الوسيط . كما آمنوا بالسحر ودعامة حياة الإنسان بحركة
الكواكب مما يعرف « بالآستولوجيا » (علم الفلك الأسطوري) .

ومن الخطأ ، وهم في هذه الغيبة الروحية ، أن يهتموا بالوثنية ، فإن التعمق في تحليل نفسياتهم يكشف لنا ، خلف ظاهريهم ، عن إحساس ديني قوى ، دون التمسك الضيق بفرائض مرسومة ، وكأن كل فرد منهم اتخذ لنفسه عقيدة خاصة ؛ وحرية في التعرف على ما يلقى من مشاهد التحول الإنساني الكبير ، ومن ظواهره احتفاؤهم بالإسلام . حدث هذا في أعقاب الحروب الصليبية ، وقد امتدت الرحلات إلى الشرق تجارة وسياحة (كانت السياحة في الأغلب حجيجاً مسيحياً إلى مقدساتهم في فلسطين ومصر) .

وحتى منذ القرن التاسع عشر يمكن أن نجد لدى الإيطاليين الاعتراف بالمثل العليا عند المسلمين في الكرم ، كما في الإحساس بالكرامة ، والاعتداد بالنفس ، وهذا الشعور يتمثل لهم في سلطان أو أمير أيوبى ، أو سلطان من ممالك مصر . وعندما يحتاجون إلى مثل شخص بعينه حائز لهذه السجايا فإنهم لا بد واجدوه في صلاح الدين يوسف .

ويحذر بنا العلم يقيناً بأن عناية الإيطاليين كانت بالفلسفة اليونانية لا بالوثنية ، مع ملاحظة أن الأدب الإغريق ذاته يتضح فيه تغلب الفكر الفلسفي على الإيمان بالأوثان .

ومن معالجة دانتى ومعاصريه يبدو أن الفلسفة اليونانية بدأت تخرج في إيطاليا «أبيقوريين» بمعنى نشر أفكار تتعارض مع العقيدة المسيحية . ولكن مؤلفات «أبيقور» ليست موجودة ، ولا معروفة .

وحتى الحضارة الإغريقية ذاتها انتهت بمجرد فكرة غامضة عن مذهب «أبيقور». نعم من الممكن التوصل إلى الأبيقورية ودراستها فى شعر «لوكرىس» ، وفى كتابات له ، وفى نثر «سيسيرون» والتعرف منها على عالم اختنى منه الأرباب . والأغلب أن محاكم التفتيش استخلمت «الأبيقورية» تهمة لأعداء الكنيسة عندما كانت تلك المحاكم تفتقد علة لإدانتهم بالهرطقة .

ودانتى ، شاعر العصر الوسيط فى نشيده التاسع والعاشر من «الجحيم» بـصور وادى القبور المفتوحة ، تعلوها غلالات نيران عجيبة ، والأرماس المكشوفة تصدر منها شكاوى أناس ، وصياحهم البائس ، وهم من أهل القرن الثالث عشر ، أدانتهم محاكم التفتيش ، بعضهم كانوا هراطقة فعلاً ، والبعض الآخر أحرقوا بتهمة «الأبيقورية» ، ذنبهم أمام المحكمة تشمله مجموعة من الآراء تلخص أن الروح تفتى مع الجسد . وأهم ما يعنى به رجال الكنيسة هو أن مثل هذه الفكرة تقضى على إمكان تدخلهم فى قدر الإنسان بعد وفاته .

وفى القرن الخامس عشر انتشرت الكتابات الكلاسيكية ، واطلع المثقفون على آثار الإغريق الأدبية ولوفى ترجمات لاتينية .

«والملاحظ جيداً أن بعض من عرفوا كأشد المتحمسين لهذا التحرك الثقافى ، كانوا من أصدق التمسكين بقواعد دينهم إلى درجة اعتبارهم من الأتقياء» .

انتهت هذه المختارات من كتاب جاكوب بوركارث ، وهو الأقرب إلى نظرنا فيما أبعد الحضارة الإسلامية عن أدب الإغريق ، عندما يقول المؤرخ السويسرى : «ومجدد بنا العلم يقيناً أن عناية الإيطاليين كانت بالفلسفة اليونانية ، لا بالوثنية» .

٥ - ليوناردو دافنشى

يقول الناقد الفنى ليونللو قنتورى فى مؤلفه القيم ، وعنوانه (كيف نفهم التصوير من «چيوتو» حتى مارك شاغال) : «لم يعد الإيطاليون بعد سان فرانسيس الأستيزى (أى من القرن الثالث عشر) يعنون باللاهوت ، لأنهم أولعوا بحب الأرض وما عليها ، حباً أخذ عليهم المسالك ، حتى لقد نقلت أحاسيسهم بحياة المسيح وأعماله إلى حياة الإنسان اليومية . وهذا ما أنزل فى قلب الناس من مطالع القرن الخامس عشر ، إيماناً جديداً بالإنسان ، وأضحى عندهم مركز الخليفة ، ورسالتها» .

واختار قنتورى مثاله من ليوناردو دافنشى : صورة «العدراء بين الصخور» فقال : «أشخاص ليوناردو» لا يتفصلون عن المناظر الطبيعية المحيطة بهم ، فحقق الموافقة بين الصورة الإنسانية والطبيعية ، بل وحدهما . أما بيرو ديلاً فرنسيسكا ، وماذا تشيو وجيوتو فقد زحموا مساحتهم بصور الناس ، فى حين أن ليوناردو عنى بالطبيعة حول الأشخاص ، فأنطق الطبيعة لتوحى بالإنسان ، وروح

الإنسان . . . كان ليوناردو «الأومر أنيفرسالى» (الإنسان العالمى) بمعناه الكامل ، مصورًا ونحاتًا ، ومعماريًا ، وكاتبًا .

«ضرب بسهم فى شتى العلوم والمعارف ، كتاباته توضح اهتمامه بالألوان . وهو ما غدا شيئًا معروفًا مدروسًا اليوم ، وكان مجهولًا من قبل . فعندما صور ، فرض على توافق الألوان أن تجتمع فى مزيج واحد ، وهذا ما يعرف اصطلاحًا «بأسفيوماتوا لكيارو سكورو» وكان كليفًا بما يكاد يؤلف لونًا واحدًا (مونوكروم) .

«تابع ليوناردو بنات خياله إلى أبعد من الحقيقة وأرفع ، فاشترأت روحه نحو مثل عليا فى الجمال كأرق ما يكون الجمال وألطفه ، وهو جمال يكاد يخرج من الواقع إلى التجريد . وفى هذا يقول ليوناردو «أراقب معارج المدينة عندما يشرع المساء فى إرخاء سدوله ، ومخاصة إن كانت السماء غائمة . ما أرق ما ترى ، وما أهدأ ، وما أحلى . . فالضوء الساطع يبرز كل شىء عراء ، والليل الحالك يعشى فيه البصر ، فلا يرى شيئًا ، وخير الأمور الوسط» .

ويمكن أن أنتقل بك الآن إلى مونا ليزا ، زوجة الشيرور فرنشسكو ديل جوكوندا ، من أهل فلورنسا فى عصر الرينسانس ، وقد ماتت القاتنة منذ خمسمائة عام ، وبقيت صورتها عروسًا مجلوة على لوحة من خشب الجوز عزيزة على كل فؤاد يحقق بحب الفن .

ما معنى التجمع دائمًا لزوار قصر اللوفر أمام الجيوكوندا؟ أهى

أعظم لوحة في الوجود؟ أم هي أخطر عمل فني لعصر النهضة؟

أمّا أنها صورة عظيمة ، ومكانتها في الصدارة ، فما في هذا شك . وأمّا أن ليوناردو دافنشي من أكبر فناني الرينسانس ، وواحد من عبقریات القرون ، فلا تحسبن أن أحداً يقول بغير هذا . بيد أن ذلك لا يمكن أن يفسر وحده استثناء صورة موناليزا وحدها بلب الجماهير ، إلى الحد المشاهد دائماً في قاعات اللوفر ، وإلى ما نالته من حظوة لدى الملايين منذ نحو ربع قرن مضى . وعندى أن أسباب هذه الشعبية المكدسة لصورة واحدة من ليوناردو ترجع إلى عوامل مركبة أولاً وآخراً على قيمتها الذاتية كعمل شامخ ، ولكنها تمت كذلك إلى ظروف خارجة عنها ، تتعلق بليوناردو نفسه وما تركه من آثار .

لقد عاش هذا الرجل حياة مشتتة عجيبة ، تابع فيها نشاط رجل العلم المخترع ، الكاتب والفنان ، بشكل مشوش ، انتهى به إلى قلة من أعمال فنية أورثها للعالم . هذا إلى ما كان من أثر ولعه بالتجارب في اختراع الألوان ، وخلطها ، والبحث عن مواد أخرى تشارك الزيت في أثره . فكان من نتيجة ولّعه هذا أن تعرضت لوحاته للنقاء ، أو حالت ، لولا عناية الأخصائيين بالحفاظ عليها .

أعظم (بمعنى أكبر) أعمال ليوناردو صورة «العشاء الأخير» التي نفذها للآباء الدومنيكان في دير «سانتا ماريا ديلا جراسيا» في ميلانو (١٤٩٥ - ١٤٩٨) . ولولا أن اللوفر يملك لوحةً جيدة نقلت عن الصورة «الآفرسكو» لتعذر اليوم على الراي أن يتبين سوى القليل

من جمال الصورة الحائطية الأصلية ، وهى تمثل السيد المسيح يتناول عشاءه الأخير مع حواريه . وقد اختار دافنشى اللحظة التى نزل فيها قول المسيح نزول العاصفة على الحواريين ، وهو يجبرهم أن واحداً من بينهم سيغدر به : « ولما كان المساء أتكا مع الاثنى عشر حوارياً ، وفيما هم يأكلون قال : الحق أقول لكم عن واحد منكم يسلمنى . فحزنوا جداً ، وبدأ كل واحد منهم يقول : هل أنا يارب ؟ (إنجيل متى ٢٦) .

صور ليوناردو مشرقة بالحب ، والرغبة ، فإذا تداو لها الحزن فجأة بالاستنكار ، كيف يظهر وجه يهوذا الإسخريوطى ، وقلبه يضطرم بالحقق ونيته مبيته على الخيانة ؟

كان رئيس الدير الدومنيكانى رجلاً فندماً لا يعرف للفن حرمة ، ولا الفنان مقاماً . فكلما شاهد ليوناردو يضع نصف نهاره مسترسلاً فى تأملاته ، منقطعاً عن « الشغل » استحثه رئيس الدير وعنفه على « تنبلته » . ومن يدرى ، فربما قال له ذات مرة : « كللكم يا فنانين صنف واحد ، عاوزين نطعمكم لوجه الله » . (لا تعجب إن كان شيئاً من هذا قد حدث . فأمامك « الشلوط » الذى أصاب مؤخره الفتى قولفجانج أماديبوس موزار من رئيس ديوان الأمير الأسقف حاكم ولاية سالزبورج !) . إنما المؤكد أن رئيس دير سانتا ماريا ديلاً جراسيا ، لا فرق عنده بين الفنان والعجان أو الفلاح يعزق الأرض .

ذهب رئيس الدير يشكو ليوناردو إلى أمير ميلانو الدوق لودفيكو سفورزا (وكنيته «المغربي» إل مورو) .

استدعى الأمير مصوره المحبوب ، لا ليؤنبه ، بل ليتعرف بلباقة عن مدى ما تم من الفريسكو وما حققه فيه . إذ لم يغب الأمر على أذكي الرجال في عصره . فاضطر ليوناردو أن يصارح الدوق سفورزا «المورو» بجلية الخبر ، فيتحدث إليه عن فنه ، وعن أن رجل الفن يحقق أكثر ما يحقق في فنه عندما لا يظهر عليه أنه يؤدي عملاً ما . وأن ما بقي حتى تكتمل الصورة هو وجه السيد المسيح . وقد انتهى دافنشي إلى الإقلاع عن البحث في هذه الدنيا عما يحقق له تصوير ذلك الوجه العلوى . . . ثم وجه يهوذا الإسخريوطى ، وقد ضاقت السبل بالفنان نحو تصوير سحنة تُمَثِّلُ الخيانة والعدو في أحط وأفظع صورها .

واهتدى أخيراً إلى أن أصلح الوجوه التي رآها نموذجاً لسحنة الغادر ، هو سحنة الراهب الدومنيكاني ، رئيس الدير الثقيل ، أي أسقف دير سانتا ماريا ديللا جراسيا .

فضحك الدوق سفورزا ملء أشداقه من هذه الفكرة ، ووافقه عليها جزءاً وفاقاً لذلك الراهب على جهالته ، وسماحته .

تلك هي الصورة التي وفقت إليها ديباجة لكتابي هذا ، وسوف يتعرف فيه القارئ على من اختاره من بين شخصيات «الرينسانس»

مفكرين وفنانين ورجال سياسة أو دين ، كانوا صدارة ذوى الأثر في الانفتاح الباهر الذى أعتبره أهم وأصدق مصدر لحضارة أوروبا ، والعالم طراً . والذى يعينى في هذا الكتاب أن أهددَ بؤرقى على فلورنسا ، فهى عندى كما هى عند المؤرخين ، يهاد الحضارة التى نعيش فى خيرها ، وشرها اليوم . ويتوقف مستقبلها بعد ما حققه العلم الحديث من روائع خطيرة ، يتوقف مستقبلها على تغليب الخير بالسلام ، فهو ديدن الحضارة ، أما الشر ، فهو الحرب ، شيطانها الرجيم .

٦ - تصويب لازم

قد يحسب القارئ بعد كل هذه الصفحات أن « عصر الإحياء » كان جنة أرضية ، ولم يكن كذلك . والتاريخ الحى الصادق يكره الاستغفال . إنما حساب الرينسانس ، فى كتاب يمينه ، هو تحويله لتيار التاريخ من الضيق والتزمت إلى الانفتاح . ولن يختلف فى سلوكه عن أنه كان عصر جرائم بعض رجاله ونسائه . فنحن هنا لا نؤرخ لعصر أنبياء ، حتى نحلم بجنة الميعاد .

والرينسانس يمتاز بمصاحبة الخير والشر ، حتى لا تكاد تصدق أن اجتماعهما فى إبانة كان ظاهرة مميزة . فهو عصر صادق الإيمان والعقيدة فى صورة الراهب « ساقونارولا » ، كما هو عصر الجرائم فى أسرة يورجيا السفّاحة ، وعصر الكاتب الأفاق « الأربتان » (پترو

أريستو) ذى اللسان القاذع الساخر الذى انتهى بنفيه ، فذهب إلى روما يحتسى بالبابا ليون العاشر إلى أن نشر أشعاره البذيئة فى فحشها ، فطرده ، وانتهى به الأمر إلى البندقية حيث ألف كوميدياته الإباحية الفاجرة . . . كان كاتبًا موهوبًا ، وإن كان حُوشيًا ، يتلقى عون من يخشون لسانه الحامى ، كما كان شديد الإحساس بفن التصوير ، وصديقًا للمصور تسيانو ، عظيم مصورى فينسيا .

الرينسانس كان بحرًا من المتناقضات ، من البساطة إلى التعقيد ، ومن الطهارة وحب الجمال إلى الشهية المنحرفة . ولنشبهه هنا بموقف الفرد ، أميرًا كان أو حاكمًا يجمع بين تحقيق الرخاء والتقدم لشعبة وبين سلوكه الأنانى المملوء بالقسوة والعنف والتكالب على المال .

وعدالة التقدير هنا ، فليس الأمر محتضًا بأفراد ، ولكن مجتمع له أثر باق فى التاريخ العام . فقد أقبل أهل أوروبا - إيطاليين وأسبان - فرنسيين وفلمنكيين وبريطانيين وألمان - على السير فى طريق الرينسانس الواعى لكل ما فى الإنسانية من رجااجة عقل ، وإحساس بالجمال ، وتقدير للفكر ، والانفتاح على العالم .

عصر النهضة أو الإحياء كما نصفه فى لغتنا ، حقق هذا أولاً باتجاه عكسى نحو الماضى البعيد ، وأى ماضى : حضارة الإغريق والرومان . كان هذا فى الحق فتحًا على المستقبل ، لأن ما رآه من آثار اليونان القديمة عراققة فى الفكر والفن والديموقراطية ، ومن آثار الرومان فى العمارة والإدارة والقانون أعطته نفحة حضارية عجيبة .

انظر إلى متاحف أوروبا وأمريكا . لقد نهبت آثار الفن الإغريقي والروماني ؛ قبل وبعد أن نهبت آثار الحضارة الفرعونية ، وغيرها من حضارات الشرق الأدنى والأبعد . ألم تكن هذه الشراة في الاتجاه إلى تحقيق الإنسان الأرقى هي التي نادى منذ القرن السادس عشر بأن ميكيل أنجلو هو أعظم فنان في كل العصور ؟ ثم تأمل فيما تحقق بفضل الرينسانس من اكتشاف العالم شرقاً وغرباً ، ومن تحرير الفكر وإصلاح العقيدة . عد دائماً إلى المتاحف والمكتبات في أوروبا ، لتدرك ما أدى ذلك العصر من تنوير . . هو العصر الذي شجع على استخراج بعض اللغات الأوربية من ربة اللاتينية ، بترقية لغة العامة . فصاغها الشعراء والكتاب العظام إلى ما نعرفه من جمال الإيطالية والأسبانية ، ودقة اللغة الفرنسية . بل استطاع الرينسانس التقدم بما نسميه التكنولوجيا ، حتى وهب الإنسان العرف القدرة على الانفتاح والاكتشاف عبر الإقيانوس ، وأن يستخرج من الحديد « الزهر » والصلب ، وأن يخترع الأسلحة النارية ، ويضبط الأوقات بمحركات دقيقة وينسخ الكتب بالمطابع ، وأول من عرف « الكيبالات » وأنشأ التأسيسات البحرية .

هو الذي أخرج أهل العصر الوسيط من الظلام إلى النور . وخلص الفرد من ضغوط الجماعة . وهذا الوضع تدارسه المؤرخ السويسرى من مدينة بازل (بال) چاكوب بوركارث ، صاحب كتاب « الحضارة في إيطاليا » .

كان شعب العصر الوسيط يركز التفكير في ذنوبه ، مهدداً دائماً

بالشيطان الرجيم ، ومحرقة الأفلاك ، ويرهب عذاب الجحيم . وجاء
الرينانس يطالب بشيء من العلمانية ، وأن تفتح الديانة على
الدنيا وما بها من جمال .

ولا يصح اتهام عصر الإحياء باللاادينية . فالحق أن المسيحية
أحست بالحاجة إلى التجديد . متفتحة للحقائق اليومية ، في يسر
لا عسر . فيشعر الناس بحق أجسادهم ، وإعجابهم بالجمال الحى ،
أوفى صورته ، وبهذا لم يعد صعباً على أهل الفن أن يضيفوا إلى
أعمالهم التى تستوحى الكتاب المقدس قديمه وجديده ، صور
ما يتخيلون من أساطير الأقدمين .

قال لورنسو قالاً أستاذ الجامعة فى رسالة إلى أحد الزهاد
« المسيحية ليست بالضرورة زهداً ولا نسكاً . وأكتفى بالتوكيد أنك
لست أفضل من الآخرين . فهم يعدُّ لُونَك فى الفضيلة ، يمارسون
بها حياتهم النشطة » واشتهر الأستاذ لورنسو قالاً بدفاعه عن اللغة
اللاتينية (١٤٠٧ - ١٤٥٧ م) ، وهو الذى أثبت زيف الوثيقة
المنسوبة إلى الإمبراطور قسطنطين (القرن الرابع) فكتب سنة ١٤٤٠
نقدًا عنيفاً على ما وصف بالعظيمة (الدوناسيون) . وأكد أن هذه
معروفة بزيفها منذ القرن الثامن : نسب فيها إلى أول معتنقى المسيحية
• أباطرة الرومان أنه «منح» البابا حقوق الإمبراطور . وظل الشك
يجرم حولها ، إلى أن حقق زورها لورنسو قالاً .

وقال المؤرخ الفنان ماتيو بالمبيرى فى كتابه عن الحياة المدنية

(١٤٣٥ - ١٤٤٠) : « يمكن الآن حقاً لكل مفكر أن يشكر العناية الإلهية التي قضت بأن يولد في العصر الجديد ، المقدم بالأمل الموعد ، والذي يشرفه رهط نبيل الروح ، أكثر عدداً من كل ما عرفته الدنيا في الألف العام المنقضية » .

وقال ماكيا فيلي « في كل آن تستنبط آراء وفنون جديدة ، تصاغ لهما كلمات جديدة . والقرن الخامس عشر أخصب جدة في المعارف الجغرافية والعقلانية والفنية ، تعبر عنها مصطلحات في عالم الفن ، والتعليم ، والتاريخ . وإذا كانت التسمية في العلوم تسمى متأخرة حتى نهاية فهم ووعي الظاهرة المراد وضع مصطلح لها ، فقد طال الأمد في وضع كلمة « الرينسانس » لتدل باختصار خادع على التحرك الكبير ، من نشاط التجديد . بل سعادة في هذه الحقبة ، التي أمل عليها موقفها حيال الماضي . وكانت الفكرة سابقة على المصطلح ، حتى قبل عصره . فإن الأدب والفن والديانة ، على يد المفكرين والكتاب ، والمصورين والمعماريين ، منذ عصر پتارك وبوكاتشيو . تنبوا إلى الروابط التي تصلهم بحضارة الإغريق والرومان . ألم يكتب پتارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) في ملحمة «إفريقيا» عقب زيارته الأولى لروما :

«إنَّ عصرًا أفضل قد تجهز لكم ، إنَّ قدر أن يمتد بكم العمر لئمن طويل بعد وفاتي ، حسبًا أمل وأرجو ، وأن نومة النسيان هذه لن تستمر دائمًا . فسوف يتجه أحفادنا إلى الروعة في ضياء الماضي حينما ينقشع الظلام . وعندما اكتشف پتارك عام ١٣٤٥ رسائل

سيبيرون في داركتب فيرونا ، أخذ في نسخها على الرغم من مرضه .

ومع إعجاب بتارك بالإغريق فإن جهله باليونانية لم يشعره بمبادلة حميمة ، إلا بعد أن تلقى ترجمة «الإلياذة» إلى اللاتينية .

وقال «بوكاتشيو» (١٣١٣ - ١٣٧٥) عن المصور چيوتو إنه أعاد الضوء إلى الفن ، وكان قد انطفأ منذ مئات السنين ، من جراء الأخطاء التي اقترفتها المصورون لإرضاء العوام ، بدل إمتاع ذكاء ذوى النهى .

وتواصل مديح القدماء ونما ، حتى الفنان المؤرخ فازارى ، ومن جاء بعده . وكان في هذا . «أس» نظرية التجديد . وفي القرن السادس عشر استعمل مصطلح (الرينسانس) بمعنى التجديد في الفن .

وجاء المعمارى أنطونيو فيلاريتى (١٤٠٠ - ١٤٦٩) ليقول على لسان عاشق للفنون : «يبدو لى أننى أرى من جديد الأسلوب الرفيع الذى قام من قديم الزمان فى روما ، وفى مصر ، حسباً قرأت عن هذه» .

وفى فلورنسا بدأت العمارة الموسومة بوصف «فن الأقدمين» . فإذا كان المصورون أسبق من المعمارين ، فإن الكتاب بآمالهم ، ومؤلفاتهم حظوا بالسبق على هؤلاء وأولئك ، فلا ريب فى أن الفنون

والآداب تحورت حوالى منتصف القرن ، وهكذا يمكن القول بأن
العصر الذى تنبأ به بترارك جاء محققاً لحدسه بعد جيلين من وفاته سنة
١٣٧٤ .